5

تحيا أمريكا، تسقط أمريكا

في كل يوم جمعة وفي كل إيران وفي وقت صلاة الجمعة في المساجد ترتفع في الهواء ملايين القبضات مع هتاف «الموت لأمريكا». وعندما نسبر غور المشهد أكثر، نجد أن القلب لا يقول إلا نصف ذلك، لقد أصبح هذا الدعاء جزءا من الشعائر ومميزا لخطب الجمعة التي تجري تقريبا وفق نفس المسار.

وينتقل الخطيب بعد عدد من العبارات الدينية وبعض الاستشهادات من القران، إلى السياسة، ويبدأ عادة بالسياسة الداخلية مشيرا إلى جهود الجمهورية الإسلامية لتحقيق الرفاه للشعب، ولكن أيضاً إلى العقبات التي تصطدم بها هذه الجهود حتى داخل السلطة نفسها، ويتكرر الحديث عن الفساد، وكذلك عدم كفاية ما تقوم به الحكومة وخاصة عندما تكون حكومة إصلاحية.

ثم يقترب بعد ذلك من السياسة الخارجية وهنا،تبدو إيران بالضرورة وكأنها ضحية الاضطهاد الدائم من القوى العظمى في العالم، الأوروبيين غالبا، وإسرائيل بالضرورة، ومن كل الوجوه أمريكا. ثم يصعد الخطيب من لهجته، وترتفع القبضات في الهواء، عندها ينتقل الخطيب بسهولة كبيرة من إيران الشهيدة إلى الإمام الشهيد، الإمام الحسين (كربلاء 680) فيستدر بصوته المتهدج شهقات البكاء يرافقها الأنين والعويل من المصلين.

ويمسح الخطيب عينيه بمنديله، أما أولئك الذي لم يذرفوا دمعة فيدفنون على الأقل رؤوسهم في صدورهم ويغطون وجوههم بأكفهم. وعندما تمضي هذه اللحظات التطهرية، تنتهي الخطبة ببعض العبارات المناسبة ويغادر كل مصل المسجد وقد استعاد مرحه، وإذا استطاع أحد ما بعد خروجه من المسجد، الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة سيكون بالتأكيد قد حقق النجاح الأكبر.

لا شيء يدعو للدهشة، مع أكثر من مليون إيراني يقيمون الآن في أمريكا الشمالية، ومنهم على الأقل ثلاث مئة ألف في لوس أنجلوس وحدها، كما ان الناس من كلا البلدين يتواصلون هاتفيا بغزارة ويتنقلون بينهما بدون صعوبات كبيرة، وعلى الأخص من الجانب الإيراني، حيث عدلت السلطات عن منع الناس من السفر خارج البلاد والعودة إليها وخاصة إذا لم يكونوا مطلوبين للقضاء (والحقيقة أن هذا قد يحدث لأكثر من سبب).

وتكمن الصعوبة الوحيدة، كما يقولون، في الحصول على تأشيرة الدخول الأمريكية، والتي لا يمكن الحصول عليها في إيران نفسها، بل يجب الذهاب إلى قنصلية أمريكية خارج إيران، وغالبا ما تكون في دبي أو أوروبا، ويحلم الطلبة بإكمال دراستهم في أمريكا أو على الأقل في كندا باعتبارها البوابة الخلفية للولايات المتحدة، وتأتي بعد ذلك قائمة خيارات أخرى: بريطانيا العظمى وأستراليا، أما ألمانيا وفرنسا فهما الخيار النهائي المقبول كرها، وتجهز الأسر نفسها لإعطاء أبنائها الذكور فرصة الدراسة في الخارج وتسديد النفقات الباهظة التي تستنزف حتى دم القلب، أما الجامعات الأمريكية فترسل مندوبيها ليتجولوا هنا وهناك من أرجاء إيران لتتعرف بشكل خفي على أفضل الطلبة الناجحين في

الامتحانات الوطنية أو مسابقات الأولمبياد العلمية فتغريهم بالسفر إلى الولايات المتحدة وتعدهم بالإنفاق عليهم ومنحهم الإقامة وحتى إعطائهم سيارة، كما تقول الشائعات المنتشرة.

ومن المعروف أنه ليس من النادر أن يكتشف النظام واحدا من الذين يحتلون مناصب عالية أن لديه ابنا أو اثنين يدرسان في أمريكا. وإذا لم يرغب هذا الوالد بالمجازفة لزيارتهما، فستقوم زوجته مقامه، وأحيانا بشكل متكرر بعد أن تختلق عذرا ما للسفر بغية الاطمئنان على ولديها العزيزين، وربما كان لديها البطاقة الخضراء السحرية التي تسمح بالإقامة في الولايات المتحدة مخبأة تحت كومة ثيابها الداخلية، هذا إن لم يكن جواز سفر أمريكي.

ونجد في أعماق الإيرانيين وبعيداً عن اللعنات الشعائرية التي تصب على أمريكا، القناعة بأن الولايات المتحدة هي المحاور الوحيد الجدير بهم. وقد قطعت كل الروابط مع الولايات المتحدة منذ الاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران منذ ما يقرب من ربع قرن، وأصبحت الشتائم الوسيلة الوحيدة للاتصال والطريقة الفريدة ليقف الفريقان في مستوى واحد، وبالنسبة للأمريكيين أيضاً فإن إيران هي المحاور الوحيد الذي يستحق الاهتمام في المنطقة ودون مقارنة مع الدول التي تقع وراءها كالسعودية والممالك البترولية الأخرى التي لا قيمة لها.

لا يستطيع الطرفان مع الحنق والكبت المتبادلين أن يتحادثا ويتعاونا كصديقين طبيعيين، والسبب هو سوء تفاهم لم ينجح أحد في تبديده، إنما علينا ألا ننسى أنه في الزمن الاستعماري الصعب وفي الوقت الذي كانت فيه

إيران كما كانت الصين، تعيش خطرا مميتا وهو التقسيم (الصين من قبل فرنسا وإنكلترا وروسيا وألمانيا، وإيران من قبل بريطانيا وروسيا) عارضت الولايات المتحدة الشهوات الاستعمارية ودافعت عن وحدة التراب الإيراني.

وعندما قامت الثورة الدستورية عام 1906، انتفض الشباب الإيراني انتفاضته الأولى في المنطقة، وقبل قيام حزب تركيا الفتاة في الإمبراطورية العثمانية، ليهز العرش القاجاري المنخور، وتمكنوا من تأسيس برلمان. وكان هناك من بين الذين قتلوا بسلاح الشاه والجيش الروسي الذي ساندہ، فتى أجنبي يدعى هوارد سكرفيل وهو شاب رسولي وأستاذ في جامعة تبريز انضم إلى طلابه في مقاومة الشاه ومات في المعركة وهو في الرابعة والعشرين من عمره أثناء محاولة فك الحصار عن المدينة، وما زال قبر هذا الشاب في مقبرة تبريز وبعد سبعين عاما، وفي ذروة الثورة الإسلامية يغطى دائما بالورود.

وبعد فترة تبعد قليلا عن ذلك الحادث، نشبت أزمة سياسية كبيرة حول خبير أمريكي جاء إلى طهران كي يعيد تنظيم الخزانة الإيرانية ويضع أسسا حديثة لميزانية الدولة، وقد شعرت الحكومات المحلية المستغلة أن مصالحها الواسعة سوف تتضرر بمثل هذه المشاريع الإصلاحية فقامت بالتحالف مع الروس والإنكليز، وبموجب هذا التحالف تقدمت القوات الروسية داخل الأراضي الإيرانية، كما بذل السفير البريطاني جهودا مضنية وملحاحة أكثر فأكثر لمغادرة الخبير الأمريكي بسبب التهديدات المختلفة، وقد كتب هذا الخبير بعد عودته إلى بلاده كتابا بعنوان «فارس المخنوقة».

obeikandl.com

وفي هذا المجال هناك أمور أخرى كثيرة لا تنسى.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، أجبرت ضغوط الرئيس الأمريكي ترومان، قوات ستالين التي احتلت أزربيجان الإيرانية منذ عام 1941، على الجلاء عنها، وكانت هذه القوات لا تبدي أي استعجال في الانسحاب مستفيدة من ظهور الجمهوريات ذات الحكم الذاتي، كما قاوم ترومان مدفوعا بسريرته المعادية للاستعمار، البريطانيين الذين أرادوا إقناعه بعدالة موقفهم عندما هبوا ضد تأميم النفط الذي صوت عليه البرلمان الإيراني عام 1951 بناء على طلب رئيس الوزراء مصدق. وفي ذلك الحين قام الإنكليز بترحيل رعاياهم من عبادان وبدؤوا بالتآمر لقلب حكم مصدق.

وانقلب كل شيء مع وصول أيزنهاور، وهو رجل لين العريكة ولكن، ولأنه كان يلعب الغولف بشكل دائم في ساعات بعد الظهر كان لابد له أن يمنح ثقته لآخرين يحلوا محله، وفي تلك الحقبة كان الأخوان دالاس الطرف الذي حاز على ثقته، جون فوستر دالس للشؤون الخارجية، وألن دالس في وكالة المخابرات المركزية، ولم يسمع «آيك» من هذين المسؤولين المتعاونين والقريبين جدا الواحد منهما من الآخر، إلا صوت جرس واحد، إنه ناقوس الخطر من الشيوعية. وفي الواقع فقد كان الأمريكيون في حرب حقيقية مع كوريا.

وفي الجانب الآخر، الجانب البريطاني، عاد تشرشل صديق السلاح ليرأس الحكومة. وقد أقلق الإنكليز أن تزويد العالم الحر بالنفط تحف به المخاطر، وأن إيران سوف تنقلب على الغرب بتأثير الاتحاد السوفييتي. وبسرعة تخلى الأمريكيون عن موقفهم التقليدي في الدفاع عن الأمم

الفتية، ووضعوا كل إمكانياتهم لطرد مصدق وعودة الشاه، انهمر مطر من الدولارات فوق أصحاب النفوذ والنواب والملالي والصحفيين، وتساقط مطر آخر من الدولارات أيضا فوق المافيات المحلية التي دفعت بقطاع الطرق التابعين لها إلى الشارع، وعبأت البروليتاريا الرثة، وكان المحرك الرئيسي للمؤامرة، كرميت روزفلت ابن الرئيس تيودور روزفلت وعميل المخابرات المركزية الأمريكية، وكان يقيم في السفارة الأمريكية في طهران ويدير منها خيوط المؤامرة، وتذكر الإيرانيون عام 1979 أي بعد ست وعشرين سنة هذه الأحداث فعمّدوا السفارة باعتبارها «وكرا للتجسس».

ولا نعرف بشكل مؤكد إلى أي نقطة حققت العملية ـ وهي الأولى من نوعها لوكالة المخابرات المركزية ـ السعادة للقادة الأمريكيين، وأقنعتهم بصحة الأسلوب الذي اتبعوه ، وشجعتهم على مواصلة نفس الطريق في كل مكان آخر يزعجهم فيه شخص ما، إنما جرت في السنة التالية تصفية آربنز في غواتيمالا[1] وتتابع هذا الأسلوب حتى أيام الليندي[2] في تشيلي بعد عشرين عاما.

أما بالنسبة للإنكليز فكان ما جرى خبطة قوية أوقفت تدهور نفوذهم العالمي، ولعل هذا النجاح هو الذي جعلهم يندفعون مع الفرنسيين في مغامرة حملة السويس دون أن يفكروا كثيرا بنتائجها، وقد أقنعهم فشل هذه المغامرة بأمر هام واحد على الأقل، وهو أن لا يشرعوا أبدا بعمل دون مشاركة الأمريكيين.

(1) سقطت حكومة الكولونيل جاكوبو أربنز المناصرة للشيوعية عام 1954 بتخطيط من جون فوستر دالاس.

(2) سلفادور الليبندي رئيس تشيلي الاشتراكي (1970-1973) سقط عام 1973 نتيجة انقلاب مدعوم من الولايات المتحدة قتل خلال عملية الانقلاب .

أما بالنسبة للوطنيين الإيرانيين فقد شكلت نتيجة المؤامرة إذلالاً قاسيا ذكّرهم بموقعهم الحقيقي في عيون الغرب، إنه موقع أبناء البلد الذين لا ينظر العالم الغربي إليهم إلا عبر ثروتهم التي يسطر عليها من دونهم ويقوض كل جهد يمكن أن يرتقي بهم فوق وضعهم الحالي، وعرف الإيرانيون أن الغرب يتملق الحكام كي يقودهم من أنوفهم في الوقت الذي يسخر فيه منهم، لقد استيقظت هذه الذكريات من جديد بعد خمسين عاما مع معالجة موضوع الملف النووي.

كل هذه الذكريات كانت تأخذ طريقها تحت الأرض وكأنها الخلد العجوز عند ماركس، وبقيت كذلك حتى انفجار عام 1978 الذي دفع بالشاه إلى المنفى في بداية السنة التالية، إنما كانت تقع بين الحين والحين نوبات تشبه الحمى، وخلال السنين السالفة الذكر أخذ الأمريكيون مواقعهم في إيران وهم يلكزون بالكوع النفوذ القديم، نفوذ فرنسا وإنكلترا، وقد استقبلوا في جامعاتهم كل عام عشرات الآلاف من الإيرانيين، وباعوا إيران الكثير من منتجاتهم وبشكل خاص السلاح، ونقلوا مع مبيعاتهم موجات من التقنيين والمستشارين، عشرة آلاف مساعد فني في الميدان العسكري فقط، كما جرى تمرير اتفاقية مع إيران لطمأنة المنفيين بإعطائهم الحصانات والامتيازات فنجت هذه الشخصيات وممتلكاتها من المحاكم الإيرانية حيث وجه الخميني وقتها نقده اللاذع الشهير لهذه المحاكم قائلا إن «كلبا يملكه أمريكي سيكون حاله في القضاء الإيراني أفضل حتى من الشاه نفسه».

قامت الثورة فنشرت فوضى عصية على الوصف وخشي الناس أن تنهار من خلال عمليات كتلك التي استخدمت ضد مصدق، وربما كان هذا هو السبب العميق لاحتلال السفارة الأمريكية من قبل مجموعة من

الطلاب في 4 تشرين الثاني 1979، بالإضافة إلى سبب فوري هو استقبال الشاه في الولايات المتحدة، وكان هذا هو الاحتلال الثاني للسفارة، إذ كان الاحتلال الأول في شهر شباط ولكنه انتهى بعد يومين أو ثلاثة فقط، بفضل مهارة السفير سوليفان الذي لم يغادر طهران حتى ذلك الحين.

ونفذ الاحتلال دون مقاومة، واعتقد العديدون وبسرعة بأنه سيكون بالمكان وضع نهاية سريعة له، ولكن جو المزايدات الذي سيطر آنذاك على الثوريين الدينيين والثوريين الماركسيين، حال دون تجرؤ أي شخص وحتى الخميني نفسه على دفع العربة إلى الوراء، واستمر احتجاز الرهائن المرفوض 444 يوما، وقد استخدمته إيران كنوع من الأمان ضد كل محاولات الاعتداء الأمريكية.

إذلال مقابل إذلال، إنما كان الإذلال هذه المرة من نصيب الولايات المتحدة، وهو الذي دفعها إلى اتخاذ مواقفها من الثورة. وفي نيسان 1980 أي بعد ستة أشهر من الأزمة وقع الفشل الكارثي لعملية تخليص رهائن السفارة بسبب عاصفة رملية غطت المكان الذي يفترض أن تهبط فيه طائرات الهليكوبتر وطائرات نقل في عرض الصحراء بالقرب من واحة تاباس.

وفي تموز 1980، أي في الشهر التاسع من الأزمة، وفي مرحلة اتسمت بقطع العلاقات بين الولايات المتحدة والعراق بدعوى رعايته للإرهاب التقى بريجينيو بريجنسكي رئيس مجلس الأمن القومي الأمريكي مع صدام حسين في الأردن، وبعد شهرين أي في شهر أيلول هاجم العراق إيران وفي تقديره التغلب بسهولة على هذه البلاد المفككة، وفي الشهر الذي تلاه اجتمع جورج بوش المرشح ليكون نائبا لرونالد ريغن المرشح للرئاسة

بمبعوثين إيرانيين كي يحول دون إطلاق سراح الرهائن في ظل رئاسة كارتر المنتهية وحصل على وعد بإطلاق سراحهم وإعادتهم إلى بلادهم مع بداية تسلم الرئيس الجمهوري المقبل منصبه، وقد حقق بذلك نصراً باهراً حيث تحقق تحرير الرهائن في كانون الثاني 1981 وهو اليوم نفسه الذي جرى فيه الاحتفال بتنصيب رونالد ريغن.

ولكن الحرب الإيرانية دامت ثماني سنوات، وقد تمتع صدام خلالها بالرعاية الدائمة للولايات المتحدة الأمريكية، وشطب العراق من قائمة الدول الراعية للإرهاب وأعيدت العلاقات الدبلوماسية رسميا، وسافر رامسفيلد إلى بغداد بصفته مبعوثا شخصيا من الرئيس ريغن، كما أفاد صدام من رعاية أوروبا وخاصة فرنسا، والعالم العربي، أي تقريبا العالم كله ما عدا الصين وإسرائيل، وقد احتاج الأمر إلى زمن طويل كي تعترف الأمم المتحدة على لسان أمينها العام بأن العراق هو الدولة المعتدية.

أورد هذا كي أقول بأن النطفة التي وضعت في رحم المؤامرة الأنجلوأمريكية ضد مصدق، تسببت بسلسلة متعاقبة ومتوالية من النتائج التي لم يكن بالمكان تفاديها، ليس فقط في تاريخ إيران، بل في تاريخ المنطقة كلها وما وراءها أيضاً. وكان احتلال السفارة الأمريكية أحد هذه النتائج كما أطلقت المؤامرة العنف في المنطقة. ونلمس حتى اليوم نتائجها باستمرار ومنها العقوبات الاقتصادية التي فرضت على إيران من قبل الولايات المتحدة، والتي فرضت على البلاد عبئا كبيراً في عملية تحديث وسائل استثمار البترول والغاز، وتجديد أسطول النقل الجوي الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وبشكل عام حالت العقوبات دون تنمية اقتصادها.

كان بإمكان كلمة أسف واحدة، أو إشارة تعاطف مع المعاناة المفروضة على الرهائن أن تفتح من جديد باب الحوار، وحتى على المستوى غير الحكومي يعترف أنصار النظام طوعا بالخطأ الذي تمثل بالاحتجاز الطويل للرهائن. أما أعضاء اتحاد الطلبة الذين قاموا في الأصل بالاستيلاء على السفارة فقد انتقلوا في قسمهم الأعظم إلى الجانب الإصلاحي ملتفين حول الرئيس خاتمي، هذه هي مثلا حال المستشارة والناطقة الرسمية لمحتجزي الرهائن أمام الصحافة الأجنبية، وهي طهران ماري والتي أصبحت فيما بعد نائبا لرئيس الجمهورية لشؤون البيئة، واسمها الحقيقي معصومة ابتكار. ويهرب الذين قاموا بهذا الدور و كل عام من كل الاحتفالات السنوية التي يقيمها النظام إحياء لذكرى احتلال السفارة.

ولكن، إذا قاومت إيران فكرة الاعتذار فذلك لأن احتلال السفارة الأمريكية تبلور إلى عمل تأسيسي في الجمهورية الإسلامية كما كان الأمر مع احتلال الباستيل في الثورة الفرنسية. ففي الحالتين جرى الاستيلاء على رمز الطغيان، وهو عمل يتحول دوما إلى رمز مقدس. ولا يمكننا ان نتصور الفرنسيين يعترفون أنه ما كان على آبائهم الاستيلاء على سجن فارغ وباحتين تعيستين أو ثلاث، وذبح حاميته الوديعة من الدرك. ولن يستطيع امرؤ أن يقنع الإيرانيين بالاعتراف أنه ما كان عليهم استغلال السفارة الأمريكية لتحقيق أغراضهم.

وهكذا تحتفل الجمهورية الإسلامية في بداية تشرين الثاني من كل عام بذكرى الاستيلاء على السفارة، ويقال إن أبطال هذا العمل لا يشاركون في الاحتفال أبدا، إنما تحضره وحدات من الباسيج وهي ميليشيات شبابية تابعة للنظام، وكذلك الآلاف من أطفال المدارس، وفي

تلك المناسبة يتحول البناء الذي كان سفارة إلى دورة مراحيض، وتفتح أبوابها للزائرين الذين يتجولون في المكاتب التي تحولت إلى صالات عرض لشراسة الاستعمار والصهيونية مع صور عنف دامية تنال استحسان الناس دائما، ويزور الناس أيضا غرفة «الشيفرة» التي تقدم للجمهور على أنها قلب كل الدسائس والمكائد، بينما هي في الحقيقة مجهزة بأجهزة تعود للعام 1970، وعادية جداً.

وفي السفارة قاعة كبيرة زودت بألعاب للأطفال، مع مسابقات ومعارض رسم لمواضيع معدة مسبقا بهدف التعبئة، وقد زرت القاعة فقوبلت باستغراب رغم أني ذهبت مخفيا صفتي وبرفقة سفير سويسراً الذي يرعى المصالح الأمريكية، وكان الذي استقبلنا «ميكي ماوس» كبير يرتدي ثوبا من القطيفة ويحركه من الداخل بدون شك أحد أفراد الباسيج، لكن «ميكي» كان صديقاً لكل الأطفال بما فيهم أطفال إيران، وقد رسم على الأرض عند مدخل السفارة علم أمريكي كبير يدوسه الداخلون بأقدامهم إلا إذا داروا من حوله قاصدين تجنب ذلك، وهذا ما فعلته أنا بالطبع.

وكان باستطاعتنا بعد بضعة أيام أن نقرأ في الصحف أن عددا معينا من تلامذة المدارس الابتدائية الذين قيدوا إلى السفارة بشكل جماعي رفضوا أن يدوسوا بأقدامهم الراية المزينة بالنجوم، كما يجب ألا نتجاهل التعاطف الشعبي الإيراني الذي خلقته اعتداءات 11 أيلول، قد نتساءل ماذا اتخذوا من إجراءات ضد هؤلاء التلاميذ المتمردين؟ أي عقوبة يمكن أن تفرض بحقهم؟ أوردت الصحافة بأنه تقرر أخيرا معاقبتهم بـ «صفر في السلوك».

والحقيقة أنه في إيران وفي قلب النظام نفسه، يحلم الكثيرون بوصل ما انقطع مع الأمريكيين، ويعتقد كل إيراني من هؤلاء أن الذي ينهي هذه الدورة من العنف سيحقق شعبية كبيرة وسيحصل على تأييد كبير في مسيرته السياسية، ولكن ما يدعو للصدمة أن كل شخص يسعى لمنع جاره من النجاح. ويا لمصيبة من يتجرأ على الخروج من الخندق، إذ ستناله نيران أصدقائه قبل نيران خصومه.

من الجانب الأمريكي، يرغب الكثيرون أيضا بالخروج من الحصار ولكن دون الدخول بمخاطرة سياسية تثير نقمة الناخبين، وكان الجانبان الإيراني والأمريكي، خلال سنوات وسنوات يفوتان الفرصة تلو الفرصة حيث كانت كل إشارة تبدر من هذا الطرف تدفع الطرف الآخر للتراجع وكانت كل ابتسامة ترتسم على وجه هذا الجانب تجعل الجانب الآخر يقطب حاجبيه، وقد فتحت الثغرة الأخيرة من قبل الرئيس بوش في حزيران 2006. ترى هل ستقود هذه الثغرة إلى الخلاص من اللعنة؟.

والأمر الحقيقي أن ملف النزاع مثقل الآن بالأزمتين العراقية واللبنانية.

في الجانب العراقي، لدى الإيرانيين ما يدعوهم للسعادة. فبدون أن يتجشموا عناء الحركة قام الأمريكيون بتخليصهم من عدوهم اللدود صدام حسين الذي منعهم لسنوات طويلة من النوم. (وقد تخلصوا قبل فترة من أعداء لدودين آخرين في أفغانستان وهم طالبان). وباسم الديمقراطية أعطيت الفرصة لشيعة العراق للوصول إلى مراكز المسؤولية السياسية التي كانوا قد حرموا منها لقرون عديدة، وقد دخل العراق أخيرا في وضع يكاد يكون عصيا على الحل، وهذا مالا يسبب حزنا للنظام الإيراني.

هل علينا القول إن إيران سعيدة وهي تراقب الأحداث من مقصورة في المسرح؟ وسيحقق هذا مزيدا من الثقة لدى جميع الذين يتحركون في الظل وبشكل خاص الحرس الثوري (الباسدران) الذي يحمل حماس الثورة الوليدة، ولا يمكن اعتبار العراق الذي يضم بين جنباته معظم أضرحة الأئمة الكبار، كما كان ملجأ الإمام الأخير الذي سيعود يوما من غيبته أرضا غريبة للإيراني المتدين، حيث يهرع عشرات الألوف منهم دون أدنى تفكير ولو للحظة واحدة لزيارة هذه الأماكن الشيعية الكبرى و المقدسة في جنوب العراق والتي كانت ممنوعة عليهم، ليتموا شعائرهم.

نحن هنا أمام دافعين على الأقل لتعقيد حياة الأمريكيين الصليبيين الأول سياسي والثاني ديني، والمطلوب تعقيد أمورهم بما يكفي ليتتابعوا الغوص في الوحل وتستنزفهم الحرب، ولكن ليس إلى الدرجة التي يؤدي فيها انفجار البلاد إلى إضعاف سلطة الشيعة العراقيين، والسماح بانفصال أكراد المنطقة بما فيهم الأكراد الإيرانيين ليجدوا أنفسهم وقد أصبحوا أمة واحدة، إن الممارسة الإيرانية هنا دقيقة فهي تعبىء دون شك الكثير من القرائح التي تعمل خلف ستار.

أما لبنان وفلسطين فهما الميدانان المفضلان لنشاط الحرس الثوري. لبنان، بالنسبة لهم مصدر فخرهم اذ أسسوا فيه حزب الله الذي خلق في البلاد الشعور بالانتماء للمجتمع الشيعي، وهو المجتمع الأكثر فقراً، وحتى ذلك الحين الأكثر تهميشا، وقد أنفق الإيرانيون الكثير من المال منذ الثمانينات لإنشاء ميليشيا علموها كيف تنشر الرعب، وكيف تقاوم، ولم يكن باستطاعة أحد تصور أنها ستجهز بأسلحة تتكامل يوما بعد يوم، وبشكل خاص بالصواريخ التي ضربت حيفا صيف عام 2006، وربما بصواريخ

أطول مدى تستطيع ذات يوم الوصول إلى تل أبيب، وقد اكتسبت كبائن الشحن في الطائرات التي تسافر بين دمشق وطهران شهرةً بأنها تُحشى بالأسلحة أكثر مما تنقل الأمتعة الشخصية للسواح الدينيين الإيرانيين الذين يتوجهون إلى دمشق للصلاة عند أضرحة بعض الأولياء.

ولكن الشيعة العراقيين ليسوا دمى بيد الإيرانيين، فقائدهم الروحي والسياسي الرئيسي آية الله سيستاني هو معارض بشدة للخميني وتعاليمه، لذلك تعلم حزب الله كيف يبحر بين راعييه الاثنين، إيران وسورية، وقد حققت الشخصية الرئيسية فيه، (حسن نصرالله)، نفوذا في العالمين العربي والإسلامي، مع التأكيد بأنه ليس لعبة بيد أحد.

وإذا كانت إيران تلقي بثقلها على سياسة حزب الله في لبنان، وبشكل جزئي على حركة حماس في فلسطين ـ وهذا مؤكد تماما ـ فإن هذا الأمر ينبثق من رعايتها الدائمة، المالية وغيرها، وليس عن طريق سلطة تراتبية، وتبحث إيران بالتأكيد معهما وبالتفصيل ما يستطيعان فعله ومالا يستطيعان، كما تعطيهما أيضاً، في الوقت اللازم نصائح بالاعتدال، لقد تعلم النظام أن يكون حذرا.. وكان عليه في الواقع أن يوازن دائما بين المصالح الخاصة لإيران كدولة وأمة وبين قضايا الثورة الإسلامية، والنواة الصلبة لديه هي نشر الثورة الإسلامية في العالم العربي ـ الإسلامي وما وراءه وعلى صد الغرب الكافر ما أمكن، وتعتبر القضية الفلسطينية بالنسبة لإيران البيرق المفضل لديها لرفعه، ولكن النظام يعلم أيضاً أنه ليس من مصلحته إشعال النار في الشرق الأوسط والشرق الأدنى إلى درجة يجد نفسه وسط اضطرابات سياسية واجتماعية وحتى الخوف أن يصلها لهيب الحريق المشتعل، ومن الواضح أن مخاطر مثل هذه السياسة

هي حقيقية جداً بسبب العديد من الملفات القابلة للاشتعال ومنها الملف النووي الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

وكي ننهي هذا الفصل سنورد ملاحظة طريفة بالعودة مع إبراهيم نبوي إلى الخطوات الدائمة في التقدم والتقهقر في المسألة الإيرانية ـ الأمريكية، وقد نشر هذا الكاتب الساخر بعد مغادرته إيران إلى المهجر مقالا في مجلة بايان عام 2002.

قال إبراهيم نبوي في المقال المذكور: إن ميول الأمريكيين للإيرانيين وميول الإيرانيين للأمريكيين كبيرة، فنحن نشبه بعضنا كثيراً، ونحن نحب بعضنا بشكل كبير، ونحن نكره بعضنا كرها لا يوصف. وباختصار كل شيء بيننا يقوم على أساس تفضيل الذات، وحتى في الصورة التي يكوّنها كل واحد منا عن الآخر.

أعلنت الصحافة الإيرانية أن مجموعة من الإيرانيين أشعلوا الشموع ليعبروا عن تضامنهم مع ضحايا اعتداءات 11 أيلول.

وبعد بضعة أيام، أعلن وزير الشؤون الخارجية الإيراني أنه إذا قبلت الولايات المتحدة أن تكون منطقية، فإيران جاهزة للدخول في حوار معها.

وفي اليوم التالي جزم وزير الشؤون الخارجية الإيراني أن إيران لن تتحاور إطلاقا مع الولايات المتحدة.

وبعد أسبوع من ذلك التصريح الجديد، صرح وزير الشؤون الخارجية الإيراني بأنه جاهز دائما للحوار.

obeikandl.com

وأخيرا، أعلنت الحكومة الإيرانية موقفها الرسمي على الولايات المتحدة وهو أن تقف إلى جانبنا في قضايانا العادلة وتسمح لنا بأن نوجه قبضتنا إلى وجهها، ويجب على الأمريكيين الاسترحام لمتابعة الحوار، بينما ـ نحن ـ من طرفنا، سنرفض الحوار حتى القطرة الأخيرة من دمنا.

ومن الجانب الأمريكي، أعلن الرئيس بوش بأن الإيرانيين قد تبنوا موقفاً صحيحا جدا بعد اعتداءات 11 أيلول.

وبعد يومين أعلن الرئيس بوش أنه لا يوجد أدنى شك في المشاركة الضمنية لإيران في اعتداءات 11 أيلول.

وبعد ثلاثة أيام جزم كولن باول بأن الولايات المتحدة مقتنعة بأن إيران ليست متورطة في اعتداءات الحادي عشر من أيلول.

وأخيرا، أعلنت الإدارة الأمريكية موقفها الرسمي: «نحن جاهزون للحوار ولتدمير إيران المسالمة والمحبة للحرب عبر عملية تبدأ فورا وتستمر ثلاث سنوات.

حكمة: من حسن الحظ أن الإيرانيين والأمريكيين ليسوا السكان الوحيدين على هذا الكوكب، وأن هناك شعوبا أخرى تشاركهم العيش، ولولا ذلك لما بقي شيء من عالمنا.

obeikandi.com

6

وراء مقود السيارة

قال البابا بيوس الحادي عشر ذات يوم: إن الحضارات الراسخة للشعوب تعبر عن نفسها بشكل طبيعي تماما عبر صورتها الثقافية». وإذا ما قيس هذا القول بالعبارات الطنانة لبدا مبتذلا، ولو بقي حيا حتى اليوم لقال كما يقول كل الناس الآن بأن الحضارة تعبر عن نفسها بطريقة قيادة الشعب للسيارة.

وبهذا الخصوص تتميز إيران عن كل الآخرين، لدي صديق، رحالة كبير، وسائق متمرس، ويتمتع ببنية قوية، أقام وقاد سيارته في بلدان لا تحتمل فيها حركة السير مثل مصر والهند، وقد شاهدته بعد وصوله إلى طهران بقليل يقود سيارته، ويقف أمام منعطف رئيسي، وقد شحب وجهه. كان كل سائق سواء كان يقود سيارة كبيرة، سيارة عادية، تاكسي، سيارة نقل صغيرة، يزاحم بالقرب من إشارة المرور الخضراء ليحصل على سبق على كل الآخرين بأي ثمن، وسط مشاة يعبرون الشارع باستمرار دون أن يعيروا التفاتا لما يجري، ووسط ثآليل من الدراجات النارية تطير هنا وهناك كالزنابير.

لاشيء من العنف وسط هذه الفوضى، لا شيء من الضوضاء الدائمة لأبواق السيارات التي نسمعها في القاهرة أو في دمشق. بالعكس، إنها فوضى منظمة. مثلا، وفيما عدا حالات الإسعاف المتعلقة بحياة الناس

فإن استخدام بوق السيارة في إيران ممنوع، وإذا ما استخدم فبلمسة بسيطة للزر، وفي أسوأ الحالات يتكرر صوت (بيب) مرتين أو ثلاث، وهذا بالضبط ما يجب فعله للفت انتباه الناس الذين يفترض أنهم يقظون وحذرون، وبالنسبة للإيرانيين، هذا التنبيه يكفيهم .

والصراع من أجل المرور يجري بالسيوف التي علاها الغبار، فقانون السير يجري تجاهله تماما طالما أنه يعبر عن نظام عام وهذا ما يخالف طبيعة كل فارسي، والعلاقة بين أي سائقين، أو بين سائق سيارة وسائق دراجة نارية أو حتى بينه وبين أحد المشاة في لحظة التنافس واقتراب أحدهما من الآخر هي علاقة تفاعلية، وتتطلب أن يزن كل منهما بلمح البصر الحالة المعنوية للخصم، ولين عريكته أو سوء طبعه، ثقته بنفسه أو ضعفها، هل هو في عجلة من أمره أم لا، السرعة والطريقة المحتملة لاندفاعه نحو الخصم.

وإذا فكر أحدهم أن يغضبه، فإنه يزداد اندفاعا، و يمكن للآخر أن يفعل نفس السيىء، حيث يصل الاثنان غالبا إلى احتكاك هيكلي السيارة لبضعة سنتيمترات، فإذا تراجع الآخر استمتع الأول بنشوة نصر صغير. أما الذي تراجع فيعزي نفسه بأنه أكثر عقلانية من الآخر، ويغيب بالتالي أي شعور بالإهانة، أو أي شعور بالبغضاء من هذا الجانب أو ذاك. وتستمرهذه الحال إلى أن يتجدد الموقف من جديد، وهذا يمكن أن يحدث بعد بضع ثوان بسبب الاختناقات المرورية المرعبة في طهران.

وإذا شاهدنا سيارة تسير في شارع ذي اتجاه واحد وتقوم بنصف دورة عند فتحة في شارع رئيسي مزدحم، أو تسير متقهقرة إلى الخلف

على طريق سريع لتبلغ منفذا بعد بضع عشرات من الأمتار، فليس هناك مبرر للانزعاج أو الهياج، إذ يعتبر هذا الأمر عاديا ويستدعي من بقية السيارات التنحي أو الإبطاء لتسهيل حركة السيارة المتقهقرة، طالما أن كل سائق قد يحتاج ذات يوم لمساعدة الآخرين له وهو يقوم بنفس الحركة. ويحدث كل فرد نفسه أنه إذا قام امرؤ بهذه المناورة فلأنه مضطر إلى ذلك، وبالتالي يجب احترامه.

ومن خلال نفس القواعد التي تنتظم هذه الأفكار، أتذكر أنني، في بداية وجودي في إيران، أوقفت سيارتي في طهران في شارع ضيق، كي ألقي نظرة على مخطط المدينة، وكان الشارع فارغا من السيارات في تلك اللحظة، وبعد دقيقتين رفعت نظري إلى المرآة العاكسة لأجد خلفي سيارة نقل مليئة بالركاب وخلفها خمس أو ست سيارات صغيرة، وكان الجميع ينتظر بصبر أن أنتهي مما كنت فيه، ولم يستعمل أحد منهم البوق. وكانوا يفترضون أنني إن توقفت فلسبب معقول، ولذلك فلا موجب لإثارة الأعصاب.

وأين الشرطة من كل هذا؟ في الواقع إن موقفهم دقيق طالما أنهم أشخاص يمثلون الجهات الرسمية، والجهات الرسمية كما يراها الإيرانيون هي عدو، وقليلا ما ينظر إلى رجال الشرطة على أنهم يمثلون القانون ولكنهم كأشخاص يستحقون الاحترام ويتلقونه شأنهم في ذلك شان كل الناس الآخرين.. وفي هذا الميدان أيضاً ينظر إلى الاحتكاك معهم والذي يمكن أن يحدث لا على أنه مواجهة بين الصواب والخطأ، وإنما على أنه احتكاك بين فردين بينهما معرفة واهية، يزن كل منهما الآخر ويدخل معه في مفاوضات لم يحدد موضوعها سابقاً.

وتعمل شرط المرور في ظروف قاسية، وفي مناخ يسممه التلوث الناتج عن حركة السيارات، وهم غالبا ما يقفون على أرضية الطريق مباشرة وبالتالي في نفس سوية السيارات التي تلامس في سيرها كل أجزاء جسمهم إن حالهم حال مصارع ثيران قذف به ورغما عنه إلى الحلبة.

وحاليا، أقام رئيس شرطة المرور في طهران الأكشاك عند المنعطفات الرئيسية كي يحميهم ولو قليلا ويرفعهم فوق مستوى الأرض قليلا. ومع ذلك فما زالوا مبتسمين، ودمثي الأخلاق ودون أن يفرضوا أنفسهم على الناس، ولا يظهرون أي اضطراب ضد سائق السيارة الذي ينطلق مع الإشارة الحمراء أو يتجاهل أوامرهم في ألا يركن سيارته إلى جانب الرصيف. أنهم فقط يسجلون رقم السيارة على دفتر مخالفات ذي أرومة كي تدفع الغرامة فيما بعد، فإذا لم تسدد قيمة المخالفة، فليس ذلك هاما مؤقتا، لأن كل سيارة لا يمكن أن تباع مجددا في إيران، إذا لم يقم مالكها بتسديد قيمة كل المخالفات غير المدفوعة. وهكذا تكون الكلمة الأخيرة للقانون.

ولكن شيئا لا يعمل لجعل هذا القانون محبوبا أو مفهوما، ففي صباح يوم ما، وفي طريق مديني ما، وفي طريق سريع ما، وفي منعطف ما، توقف حركة المرور بصفوف من الكتل الإسمنتية دون أن يعرف أحد لماذا جرى ذلك، وعند وصول المرء إلى هذا الحاجز، يلعن الأرض بكاملها، ويبدأ السائقون بالبحث عن طرق أخرى أفضل، وأحيانا بثمن باهظ هو القيام بدورة كبيرة أو يقومون بالانعطاف نحو الخلف، أو بالرجوع إلى الوراء دون انعطاف، وأحيانا، تبدأ في الأسابيع التي تلي قطع الطريق بعض الأعمال الطرقية، ويعيش الناس على أمل أن تعود حرية المرور لهذا الطريق من

الآن وحتى سنة أو سنتين.. ولكن، أحيانا قد لا يتحقق شيء وتظهر تلك الكتل الإسمنتية وكأنها ستبقى حتى الأبد.

وفي الطريق، ستجد مثلا خطوطا لفصل الممرات رسمت عليه في غير مواضعها المناسبة، وكأنها تنفيذ لتعليمات موظفين خبثاء. ففي مثل هذا الطريق الذي يمتد مستقيما مسافات بعيدة وحتى الأفق يحذرك خط متواصل من التجاوز ولبضعة كيلومترات، ولكن عند وصولك إلى قمة جبل ما ستجد أيضاً خطا متقطعا يسمح لك بالتجاوز على الرغم من انعدام الرؤية على بعد خمسين مترا. وبعد بضعة أسابيع، إذا مررت في نفس الأمكنة قد لا تجد خطوطا من أي نوع كان . وككل الإيرانيين بإمكانك أن تتجاوز أو تحجم عن التجاوز وفق تقديراتك الشخصية.

أما الطرق السريعة فإنها معتنى بها على وجه العموم، ولكنها لن تحرمك من بعض المفاجآت، فقد تجد أن مداخلها ومخارجها وزعت بشكل خاطىء، وتكتشف أحيانا عند الاقتراب من الطريق السريع أنه لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق ذي اتجاه واحد، لماذا؟ هل ينقصهم المال للوصول بالمشروع إلى نهايته؟ وكيف يأخذ المرء الاتجاه المعاكس؟ أمر غامض... وعندما تسأل العابرين من السائقين الآخرين ينتهي بك الأمر لمعرفة أنه بمكانك بعد مئات الأمتار، وقيادة السيارة عبر الحقول، أن تصل إلى نفق هو في الحقيقة مسيل ماء، ويأمل المرء قي تلك اللحظة أن يكون جافا، ثم تزحف فوق منحدر غير معبد مواز للطريق السريع وعبر حاجز معدني محطم.

أمر آخر، إذ تكتشف أن العقاب الحقيقي هو غياب المخرج تماما، فأنت ترى عن بعد أنوار المآذن في مدينة ما تأمل بالوصول إليها، أو الوصول

الفوري إلى طريق ما يتقاطع مع الطريق السريع تستطيع أن تأخذه ولكن ما من وسيلة تمكنك من الوصول إلى ما تسعى إليه، في البداية تقود عبثا لمسافة عشرة كيلومترات أو خمسة عشر كيلومترا قبل أن تتمكن من الانعطاف نحو الخلف إنما مع أخذك الوقت اللازم كي تعتاد العين على المكان، بحيث تستطيع أن تتحرى على جانبي الطريق المنخفضين آثار عجلات، وفي النهاية ينتهي الأمر بالعثور على هذه الآثار التي تسمح لك بالسير فوق المنحدر الموازي دون أن تتعرض لمخاطر انقلاب السيارة، وكي تتمكن من الوصول بالسرعة الممكنة إلى الهدف المطلوب، هذا فيما يتعلق بالطرق المتعبة في كثير أو قليل، ولكنها بشكل عام مضطربة الحدود إذ تختفي تحت الفضلات التي يقذفها المسافرون عبر النوافذ والتي تتكدس مع مرور الزمن على جانبي الطريق، يجب على المرء حتى مع السيارات التي تستخدم في المدن المحافظة على روح المستكشف.

هل هناك طرق مأجورة؟ لنقل في البداية أن أجورها زهيدة جداً وأحيانا تكون أقل من عشرة سنتيمات من اليورو لكل مئة كيلومتر، ومن جهة أخرى، وبسبب سحنتك التي تظهر بوضوح أنك أجنبي، يقدم لك المحصلون أحيانا هدية ترافقها ابتسامة عريضة، وفي كل الأحوال هناك تعرفة موحدة لكامل مسافة الطريق مع عدم مراعاة النقطة التي ستخرج منها او الطريقة التي ستخرج بها.

إلا أنه سيطلب منك عند مغادرة الطريق أن تبرز بطاقة دخولك، أما إن كنت بدون بطاقة فسوف تدفع لكامل المسافة التي يبلغها الطريق، وليس هاما عندها النقطة التي دخلت منها، كما لا تسأل عن طريقة دخولك. ويسمح هذا لكل امرىء أن يخطط لتنقله على القياس فيستخدم المداخل

والمخارج حسب حاجته تقريبا وحسب المنافذ العشوائية، وقبل كل شيء حسب قانون بذل أقل جهد ممكن.

آه، يا لقانون بذل أقل جهد ممكن! لأنه هو مثلا الذي يدفع سائق السيارة أن يبرز فجأة عند مستديرة ما كي يسلك شارعا أو طريقا يقع مباشرة إلى يساره، ليستخدمه في الاتجاه المعاكس كي لا يضطر إلى السير كل الميدان، وهذا ما يلهم السائق أيضا أن يقطع عدة كيلومترات في الاتجاه المخالف مستخدما الطرف الترابي من الطريق كي يوفر عناء استخدام مستديرة ما، وهذا ما يدفع أيضا أحد المشاة لعبور الطريق السريع أو طريق مديني أو حتى ميدان مكشوف قافزا بين العربات التي تنهب الطريق بأقصى سرعتها، كي يصل بسرعة أكبر إلى منزله أو مكان عمله، ويمكن لنا أن نراقب هذا المشهد بهدوء عندما يتعلق الأمر بشاب خفيف الحركة، ولكننا سنضطرب عندما نرى أفراد عائلة بكاملها، بما فيهم الزوجة والأطفال يجتازون طريقا مرصوفا بالحجارة وسط ضجيج السيارات المسرعة، بل حتى عندما نرى أشخاصا مسنين يتكئون على العكاز.

وبعيدا عن هذا الفولكلور، فكل ما ذكرناه له ثمن، ويقدر عدد الوفيات في إيران على الطرق وفي الشوارع بـ 25000 وفاة سنويا، وبهذا تكون إيران أحد البلدان التي تسجل الأرقام الأعلى في الوفيات في هذا الميدان.

ومخالفات السائقين هنا كثيرة، لكن هناك أيضا قدم السيارات نفسها وضعف الصيانة للعدد الأكبر منها، ناهيك عن التحميل الزائد لسيارات الشحن، إن السيارة في إيران لا تموت أبداً، وبالإضافة إلى سيارة البايكان (وتعني السهم) التي استوردت طرزها المختلفة في

سنوات الستينات من إنكلترا، والتي بالكاد تتوقف عن العمل ، نرى أيضاً سيارات ماركة ديان مجمعة محليا في السبعينات والتي تتحرك أيضاً بنشاط على مدار الساعة.

أما العجلات فتستخدم حتى تذوب تماما، وتبرز أسلاكها، أما المصابيح فغالبا معطلة وليس نادرا أن نرى سيارات مطفأة الأنوار تجري في ظلمة الليل، وأخيرا، إن عربات الإسعاف معدة أيضا بشكل ضعيف. وهكذا فالحوادث الخطيرة تتكرر على طول المحاور الكبرى الضيقة والمزدحمة بالسيارات وسيارات الشحن والتي تربط زنجان بتبريز وكرمان بمدينة بان دون أن نتحدث عما هو الأسوأ، وهو الطريق الذي يربط طهران بمناطق الاصطياف على بحر قزوين عبر سلسلة جبال البورز، فعلى هذه الطريق المتعرجة والمحاذية لجروف عديدة، يضعك أقل خطأ، في مواجهة الموت.

وعندما يسوء الطقس في مكان ما، يذكرنا المشهد بجحيم دانتي. فبعد أن أغلقت عاصفة ثلجية طريق أصفهان شيراز لمدة يومين، شاهدت صفا طويلا من سيارات الشحن تسير بسرعة ثلاثين أو أربعين كيلومترا في الساعة، بينما تناثرت على جانبي الطريق العديد من السيارات من مختلف الطرز وقد انقلبت على أحد جانبيها، وأمام صفيحة محاطة بشبك معدني يتزاحم الناجون من الحوادث أمام نار صغيرة مرتجلة.

وتجري بالكاد عمليات تنظيف الطرقات من الثلج لتشمل اتجاها واحدا من كل طريق ذي اتجاهين وبمعدل طريق واحد من كل طريقين، ولا يتم التنظيف باستخدام أجهزة كسح الثلوج وإنما بقوة السير عليها، ولهذا

يقع الكثير من الحوادث بسبب محاولة العبور إلى الممر الآخر الذي ما زال الثلج يغطيه بسمك عشرين سنتيمترا، وعلى المرء أن يندفع مسرعا إذا ما أراد الوصول إلى مكان آمن قبل هبوط الظلام، حتى لا تتضاعف حينها الأخطار، إذ بالكاد تضيء شمس حمراء ومائلة للغروب هذا الطريق المعزول المغطى بالثلج القذر والطين. نعم، إنه الجحيم بعينه.

وماذا عن الدراجات النارية؟ إنها موجودة في كل مكان، فقد حلت محل الحمير في نقل الأشخاص الفقراء والمتواضعين، ونقل البضائع أيضاً. ويبدو أن الدراجات ذات السرعات العالية قد منعت تماما وبسرعة عند بداية الثورة لأنها استخدمت في عمليات اعتداء ضد النظام عند بداية الثورة. لذلك لا يوجد إلا الدراجات الصغيرة بمحركات 125 سم مكعب، وهي تستخدم بطريقتين.

فالشباب سواء ركبها واحد أو اثنان يستخدمونها وكأنها خيول في ميادين القتال. ترى الواحد منهم يتأرجح متلويا بين السيارات، أو يقود دراجته فوق الرصيف، عندما يجد الطريق مزدحما، وكثيراً ما يتجاهل الشارة الحمراء، أو يستخدم الطرق المخصصة لسيارات الشحن الكبيرة. كما يندفع بدراجته بأقصى سرعة، ثم يوقفها بشكل صاعق ليشب بها من جديد كالفرس الجموح. وباختصار نحن أمام لعبة كبرى سينما، ونشوة السرعة.

في هذا النوع من اللعب الذي يشابه لعبة الروليه الروسية، سيكون الموت والحوادث الخطيرة المصير الذي لا مفر منه، وقد ألزم رئيس الشرطة الوطنية، راكبي الدراجات النارية، بارتداء الخوذة وتحت طائلة الحجز

لكل دراجة مخالفة، وربما نجح تقريبا في فرض هذا النظام، إنما يلاحظ أن الكثيرين من راكبي الدراجات الصغيرة لا يضعون الخوذة على الرأس بل يدفعونها إلى الخلف لتستقر عند الرقبة وأعلى الظهر، وذلك من باب التحدي، ومع أن الهدف من فرض الخوذة هو حماية راكب الدراجة، إلا أن الحوادث مازالت تكلف غاليا، بسبب الخسائر التي تحدث بين المشاة.

وهناك الاستخدام العائلي للدراجة النارية، وفيه تصبح الخوذة من اختصاص الأب فقط، أما الزوجة فليس لها ما يحميها إلا بركة الشادور. وكذلك الأطفال تترك سلامتهم لعناية رب العالمين، والخير هنا أن القيادة العائلية يصحبها الحذر؛ لأن السائق يشعر أنه مسؤول عن عدد من الأرواح.

هذا طفل بين الرابعة والثامنة من عمره يتلاءم حجمه ليركب أمام والده على خزان الوقود، يداه مثبتتان فوق المقود إلى جانب يدي أبيه. وأقول بشكل قاطع إنه وهو في هذه الحال لا يقبل أن يكون الملك ابن عمه كما يقول المثل عندنا، أما الابن الأكبر فيحشر نفسه بين والديه، وعندما يكون عدد أفراد العائلة أكبر بقليل، يجلس الابن الثالث بشكل أو بآخر خلف أمه بين آخر المقعد وصندوق الأمتعة، وأحيانا يستطيع الناظر أن يميز بالإضافة لما سبق، وبين طيات الشادور طفلا رضيعا ملتصقا بأمه.. ولا تستطيع هذه الدراجة التعيسة ذات المئة وخمسة وعشرين سنتمترا مكعبا والتي تنوء بحملها إلا السير ببطء، وقد لا يستطيع سائق سيارة مسرعة أن يمر أمام هذا الركب المتأرجح أن يخفف من سرعته إلا إذا أدرك ضرورة ذلك قبل مسافة مناسبة، ولكنه في كل الأحوال سيشعر بالاضطراب أمام إمكانية الالتحام التي قد تلقى بأربعة أو خمسة أشخاص إلى الأرض.

بين هذين النموذجين من القيادة هناك نموذج ثالث متوسط يستعير من هذا النمط أو ذاك، حسب الظروف. إنها القيادة المهنية لناقلي البضائع، إذ بمكان السائق نقل ثلاث أو أربع من قطع السجاد أو كومة من علب الكرتون، حيث يفرض وزن الحمولة وحجمها على الأب أن يقود بنفسه. أما إذا كانت الحمولة أخف، فقد يوسوس شيطان الإغراء للسائق الشاب بلعب دور البهلوان، وكذلك يدخل تحت هذا العنوان من التصنيف قيادة الخطيب للدراجة برفقة خطيبته، أو ببساطة أي فتى وفتاة، لديهما من الحكمة أو الجنون، الكثير أو القليل حسب قوة نبض الفتى. وتمتاز الدراجة الرياضية بفائدة مضاعفة، ففيها النشوة المشتركة بسبب السرعة والخطر المحدق من جهة، والتصاق الأجساد الذي يزداد قوة مع ازدياد السرعة من جهة أخرى.

ويدهش المرء كيف تتسامح الجمهورية الإسلامية إزاء الاختلاط المضطرب في استخدام فتى وفتاة لدراجة ذات عجلتين وهو أمر شائع جدا، بينما تمنع النساء بموجب قانون غير مكتوب من قيادة الدراجة النارية بمفردهن، واللاتي سيكنَّ موضع انتقاد المجتمع المدني، أما في سيارات الأجرة العامة، كما في كل مكان آخر، فلا يسمح للرجال والنساء في كل الظروف بأي تماس جسدي بينهم، ولا حتى بأطراف الأصابع، ولا اقتراب شديد بينهم وبينهن، قد يفرضه ظرف ما.

وبالمقابل من المفيد أن نؤكد أن الكثير من النساء يقدن السيارة، وهذا شيء لا يمكن التفكير فيه في بلدان مجاورة ولكنه ليس من اللائق أن تشاهد كما يحدث في بلداننا الأوروبية امرأة تقود سيارتها وبجانبها رجل. رغم أن البعض تحدث عن نساء يعملن سائقات في سيارات الأجرة أو سيارات ركوب كبيرة.

وما استطعت أن أتحقق منه بخصوص مسألة القيادة في حي شعبي كبير في طهران ومن خلال تنقلي المنتظم فيه أن الكثير من النساء يتعلمن قيادة السيارة وبنسبة تفوق الرجال، وفي هذه الحالة يجب أن يكون المدرب امرأة. وتدل الإحصائيات المتكررة ـ وهذا ما أدهشني كثيراً ـ أن من بين كل أربعة طلاب في مدرسة تعليم القيادة في هذا الحي الشعبي هناك ثلاث من النساء، ماذا تعني هذه الظاهرة التي أثارت انتباهي وانفردت بها من بين كل علماء الأثنيات؟ بالتأكيد هن يتمسكن بفرصة تعلم قيادة السيارة لأنهن يمنعن من ركوب الدراجة النارية، رغم أنهم قد يتسامحون معهن إن ركبن دراجة عادية. أنه وجه آخر من وجوه مراوغة المجتمع الإيراني تجاه الثورة الإسلامية.

وأخيرا أجد العذر للكثير من سائقي سيارات الأجرة الإيرانيين عندما أتذكر حادثا ترك في نفسي أعمق الأثر، فقد كنت في مدينة «بام» في سيارة أجرة جديدة تماما وفي حالة جيدة، لذلك فهم يؤجرونها عادة للأجانب. توقفت السيارة لأننا كنا بانتظار شخص آخر، وقد وقفت أمامنا وعلى بعد مترين تقريبا سيارة شحن صغيرة وفيها شابان يافعان مابين الثالثة عشرة والخامسة عشرة، وكي يقتلا الوقت، أدار أحدهما محرك السيارة محاولا قيادتها، ويبدو أنه كان مرتبكا بسبب عدم خبرته، فأدار بشكل عفوي السيارة كي تتراجع إلى الخلف، وهذا ما حدث فعلا، رجعت السيارة إلى الوراء وارتطمت بسيارتنا فخطت على الهيكل جرحا عريضاً.

خرج السائق ليتفقد الأضرار، ونظر عن قرب إلى وجه مرتكب الجريمة وانتظرت أن أشاهد عملية تأديب تستخدم فيها العضلات، أو على الأقل البحث عن الوالد المسؤول، ولكني شاهدت السائق يعود إلينا

ويأخذ مكانه بهدوء، وعلى وجهه علائم الحيرة، فسألته: كيف، أراك لم تفعل شيئا؟.فأجابني: «بالطبع لا، لنر، إنه مجرد طفل». فقلت له: «أنت فعلا إنسان لطيف». فرد قائلا: «لست فعلا كذلك، ولكني أحاول أن أكون مسلما حقيقيا»

obeikandl.com